المُحكم والمتشابه عند العلامة محمد هادي معرفة

(دراســـة تحـليليـــة)

أحمـــد جليل حسن عيسى

الأستاذ المساعد الدكتور: غلامحسـين اعرابي

جامعة قم / كلية الالهيات

مقدمة

فإذا أردنا الكلام عن العلامة الشيخ معرفة فإنا نتكلم عن أحد طلاب استاذ المراجع وفضلاء الحوزات العلمية السيد ابو القاسم الخوئي, فإذا كان استاذ فضلاء فهوا قطعاً استاذ الشيخ معرفة فقد استضاء بنور هدايته, واخذ من مداد علمة, وغدا غصناً مثمراً من أغصان تلك الشجر التي ضللت بأغصانها على كل جناة العلم والمعرفة, فكان واحد من نتاجها ذلك الشيخ الفاضل, والعالم الفذ المؤلف والمحقق الذي لم يترك ميدان من ميادين العلم إلى وبرع فيه فقد اثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفاته القيمة ذات الطرح العلمي والاسلوب المتجدد والمعاصر, فقد جمع بن الأصالة والتجديد, وكيف لا يكون كذلك وقد ولد في أحضان العلم, وكان غذائه مداد العلماء, ودرس على أيدي أفاضل العلماء في الحوزتين النجف وقم, الذي بذل جهداً منقطع النظير في سعيه في سبيل طلب العلم وخدمة الدين ذلك المعطاء مذ ولادته إلى وفاته, ولد في عائلة علمية كان زاها العلم وتقى, وبذلها الوعظ والارشاء, وجهادها هداية العباد, فمهما قلنا ومهما مقول لا نوفيه حقة ولا نصل إلى شاطئ علمة, ولا نسبر غوره, حيث كان له جهود كبيرة في مجال علوم القرآن الكريم, وقد أثرى المكتبة الإسلامية بمداد أنامله, ومن فيوضاته كتاب التمهيد في علوم القرآن الذي أصبح مصدراً من مصادر العلم الذي لا يستغني عنه الباحثين والقراء, وسنقتصر في هذا البحث على بيان ما ذكر في المحكم والتشابه بما يتسع له البحث, والكلام في ذلك طويل نقتصر على بعضه, ففي البدء نتعرف على اسمه ونسبه وولادته.

المطلب الأول: اسمه , ونسبه , وولادته , وفاته.

أولاً: اسمه ونسبه وولادته. هو محمد هادي بن علي بن الميرزا محمد علي معرفة, من أحفاد الشيخ عبد العالي الميسي, ونعرف نسب هذا الشيخ الفاضل والعام المعطاء من خلال ما قاله هوه عن نفسه حيث قال: ولدت في كربلاء المقدسة عام ١٣٤٩هـ في عائلة أغلب أفرادها هم رجال دين, والدي هو الشيخ علي بن الميرزا محمد علي, أما والدتي فهي السيدة زهراء بنت السيد هاشم التاجر الرشيتي.[١] ثانياً: وفاتهتوفي العلامة الشيخ المحقق محمد هادي معرفة في مدينة قم المقدسة في التاسع والعشرون من ذي الحجة, عام ١٤٢٧هـ . ٢٠٠٧م, حيث صلى على جثمانه المرجع الديني السيد موسى الشبيري الزنجاني, ودفن بجوار مرقد السيدة فاطمة المعصومة (عليها السلام) في قم المقدسة [٢].

المطلب الثاني: بيان رأي الشيخ محمد هادي معرفة فيما يتعلق بالمحكم والمتشابه , وفيه نقاط.

قد تكلم الشيخ معرفة تفصيلاً في بيان المحكم والمتشابه, فقد أفرد مجلداً كاملاً في بيان ذلك, ونحن في هذا المحل نذكر بعض تلك المباحث بما يتسع له البحث تجنباً للإطالة ومراعاتاً لسياقات العلمية في البحث, وكذلك تجنباً لتكرار فلا نخوض في تعرف المحكم والمتشابه فقد مر بيانه, بل نذكر ما انفرد بها من مطالب منها: هل في القرآن الكريم متشابه؟ ولماذا في القرآن الكريم متشابه؟ هل يعلم التأويل إلا الله؟ ومن هم الراسخون في العلم؟ ثم نذكر نماذج من المتشابهات في القرآن, وفي ذلك سنبين جوانب من المحكم والمتشابه, وهي ذات أهميه لتعلقها بكتاب الله المجيد بصوره مباشره, وكذلك تلك الأسئلة تدور في أذهان الباحثين والقراء.

أولاً: هل في القرآن الكريم مشابه؟.عند النظر إلى هذا السؤال يتبادر في الذهن أن الإجابة بديهيه, نعم أن في القرآن الكريم متشابه والدليل قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)[٣], هذا جواب من لم ينكر ذلك, ولكن هناك إفرط وتفريط في هذا المجال, فهناك من أنكر ورد المتشابه في القرآن الكريم, وفريق جعل من القرآن الكريم كله متشابه ولا يجوز تفسيره إلى بقول المعصوم, وقد بين الشيخ معرفة ذلك حيث ذكر أن لا شك أن القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات في أكثرية غالية مشتمل على آيات متشابهات في عدد قليل حيث قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)[٤] ونسبة عدد المتشابهات إلى المحكمات نسبة هابطة جداً, فلو اعتبرنا من مجموع آي القرآن الحكيم ما يربو على ستة آلاف آية, فإن المتشابهات لا تبلغ المائتين لو أخذنا بالتدقيق وحلف المكررات حسبما يوافيك نماذج منها, وعليه فالمجال أمام مراجعة الكتاب العزيز, والارتواء من مناهله العذبة, واسع جداً, وقد حاول البعض إنكار وجود آي متشابهة بالذات في القرآن, بحجة أنه كتاب هداية عامة هذا بيان للناس كما قال تعالى(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[٥] ومن ثم فالتعبير بالتشابه في آي القرآن إنما يعني التشابه بالنسبة إلى اولئك الزائغين الذين يحاولون تحريف الكلم عن مواضعه, غير أن الإنكار لا يصلح علاجاً لواقعية لا محيص عنها, نعم لا يصطدم وجود المتشابه في القرآن مع كونه هداية عموم وذلك لأمرين الأول: قلت عدد الآيات المتشابهة الواردة في كتاب الله العزيز, بحيث كان الطريق أمام المستهدين بهدي القرآن الكريم فسيحاً جداً, الأمر ثانياً: هداية الكتاب تعني كونه المصدر الأول للتشريع وتنظيم الحياة العامة, وهذا لا يعني امكان مراجعة الأفراد بأنفسهم للقرآن الكريم في جميع أحكامه وتشريعاته, إذ لمثل ذلك المختصون به من المفسرون والعلماء القادرون على استخرج الحكم الشرعي, وبذلك يكون القرآن الكريم كتاب هداية

لناس جميعاً ولا يعارضه في ذلك ورود المتشابه من عدمه, هذه إتجاه وهناك إتجاه آخر معاكس لذلك وهم القائلون بأن جميع ما في القرآن متشابه بزعمهم, ومن ثم لا يجوز مسها إلا بدلالة نص معصوم, أي يرد بيان المتشابه وتفسيره من قبل المعصوم, وهذا أوصلهم إلى حال أسقط ظواهر الكتاب عن صلاحية الاستدلال بها أو الاستنباط منها لحكم شرعي, مستدلين بقوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا)[٦], وهذ القول مردود كيف وقد أمرنا الله تعالى بالنظر والتدبر في آيات القرآن الكريم حيث يقول تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [٧], وقد أمرنا النبي (صلى الله عليو وآله وسلم) في حال اقبلت علينا الفتن بالرجوع إلى القرآن الكريم لرفع الإشكال وفض النزاع, فكيف الرجوع إلى القرآن الوضح الملتبسات إذا كان هو ملتبساً ؟ وحيث قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [٨], فكيف يهدي للتي هي أقوم وهو كله متشابه لا يعلمه إلى المعصوم وقد قصر الناس عن فهمة والهدي به, وهذا يعارض كثير من آيات القرآن الكريم التي أمرنا بتدبر والتفكر, فذلك القول الصائب لا إفرط ولا تفريط, فلا نقول لا يوجد في القرآن الكريم متشابه, ولا أن جميع آي القرآن الكريم متشابه, بل ورد في القرآن الكريم آيات محكمات وأُخر متشابهات كما ذكر الله عز وجل في كتابه, وأما عددها فهو قليل قياساً بالمحكم لا يبلغ المائتين في حين حذفنا المتكرر, وسنذكر نماذج من تلك الآيات في محلها[٩].

ثانياً: لماذا في القرآن الكريم متشابه؟ ولربما معترض يقول أن وقوع المتشابه في القرآن الكريم داعياً إلى وقوع البس والإشتباه في آي الذكر الحكيم, فلو كان جميع القرآن محكماً لكان أسلم وأقرب إلى طرق الهداية, وهذا ما ذكر الملاحدة في الطعن بالقرآن الكريم جعلوا من إشتمال القرآن الكريم على المتشابهات أمرد داعي إلى النقص فيه, إذ كيف يقول المسلمون بأن القرآن الكريم مرجع الناس جميعاً في جميع الأمصار والعصور, مع وفرة دواعي الإختلاف فيه, حيث يجد صاحب كل مذهب غايته في القرآن, بسبب اختلاف آياته في الدلالة والرد الأمر الذي لا يليق بالحكيم تعالى أن يجعل من كتابه المبين معرضاً للجدل واختلاف الآراء, فلو كان جعله نقياً من المتشابهات المثيرة للشبهات لكان أقرب الى حصول الغرض والمقصود من الهداية العامة لناس, وقد كثر الكلام العلماء والفلاسفة في ذلك, أما العلاج الحاسم لهذا الإشكال في كل ما يتعلق بها, يرجع أن وقوع التشابه في مثل القرآن على كون الكتاب السماوي الخالد, شيء لا بد منه, مادام كان يجري في تعابيره الرقيقة مع أساليب القوم, في حين كان ستو فحواه عن مستواهم الهابط, القرآن جاء بمفاهيم حديثة كانت غريبة عن طبيعة المجتمع البشري آنذاك, ولاسيما جزيرة العرب القاحلة, والأساليب التي كانت دارجة في ذلك العهد الأمر الذي ضاق بتلك الألفاظ, وهى موضوعة لمعان مبتذلة وهابطة إلى مستوى سحيق, أن تحيط مفاهيم هي في درجة راقية وبعيدة الآفاق, كانت الألفاظ والكلمات التي كانت العرب تستعملها في محاوراتها وتعابيرها, محدودة في نطاق صيق حسبما كانت العرب تألفه من معان محسوسة أو قريبة من الحسن و مبتذلة الى حدما, فجاء استعمالها من قبل القرآن, الكتاب الذي جاء للبشرية على مختلف مستوياتهم مع الأبدية غريباً عن المألوف عند الناس, ومن ثم قصرت أفهامهم عن إدراك حقائقها ماعدا ظواهر اللفظ والتعبير إذ كانت الألفاظ تقصر بالذات عن أداء مفاهيم لم تكن تطابقها, ومن ثم كان اللجوء إلى صنوف المجاز وأنواع الاستعارات, أو الايفاء بالكناية ودقائق الاشارات أمر لابد منه, وهو الأمر الذي قرب المفاهيم القرآنية إلى مستوى أفهام العامة من جهة, وبعدها من جهة أخرى, قربها من جهة إخضاعها لقوالب لفظية كانت مألوفة لدى العرب, وبعدها حيث سمو المعنى, كان يأبى الخضوع لقوالب لم تكن موضوعة لمثله, كما كان يأبى النزول مع المستوى الهابط مهما بولغ في اخضاعه, إذا اللفظ يقصر عن أداء مفهوم لا يكون قالباً له ولا يطابقه تماماً, هذا هو السبب الأقوى لوقوع التشابه في تعبيرات القرآن بالذات, كما مر من مسألة لا إفراط ولا تفريط, ومسائل شؤون الخليفة وما انطوت عليه من أسرار وغوامض خافية على غالبية الناس, مثلا قوله تعالى:(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)[١٠], وفي ذلك تعبير رمزي عن شأن الانسان بصورة عامة في الأرض، إنه ذلك الموجود العجيب الذي تملك في ذاته قدرة جبارة يضيق عنها الفضاء, و حيث تخضع له قوى الأرض والسماء كما جاء في قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[١١], وكل ذلك بفضل ما وهب لله له من نبوغ ووعي وقدره على الإدراك والتفكر, لم تكن العرب تدرك هكذا تصور عن الإنسان, وغير ذلك من الآيات بعيده عن ادراك عامة الناس التي أوقعت طائفة من المسلمين إلى القول بتجسيم بحقه تعالى عن ذلك علواً كبيرا, ومثال ذلك قوله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)[١٢], حيث نسب من لم يحط علماً بصفاته تعالى بأن لله ساق سبحانه, في حين أن استعارة الساق جاءت للشدة عند العرب كان أمراً دارجاً عندهم, حيث كثير ما يترنم شعرائهم بقولهم: (وقامت الحرب على ساق) أي احتدمت في شدتها, فتجد العربي عندما ينظر إلى هذا الشعر لا يترددون في فهم الحقيقة, إذ يعلمون أن ليس المراد أن رجل للحرب ولا ساق, أما عند النظر إلى الآية المباركة فيذهب وهمهم إلى وجود رجل له تعالى وساق, وهذ ما جعل بعضهم ذهب إلى عقيدة التجسيم, تعالى الله عن ذلك[١٣]وقد ذكر السيد الطباطبائي في الميزان ما يُكد سمو القرآن الكريم

بالفاضلة عن مستوى عامة الإنسان الهابط في الفهم والدراك, إلا على من اصطفى الله من عبادة حيث ذكر أن سبب وقوع التشابه في القرآن يعود إلى خضوع القرآن في إلقاء معارفه العالية عن لألفاظ وأساليب دارجة هي لم تكن موضوعة لسوى معاني محسوسة أو قريبة منها, ومن ثم لم تكن تفي بتمام المقصود, فوقع التشابه فيها وخفي وجه المطلوب واقع على عامة الناس, إلا على أولئك الذين نفذت بصيرتهم وكانوا على مستوى رفيع, حيث قال تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)[١٤], وهكذا القرآن تحتمله الأفهام على قدر استعداداتها, وفيه من المتشابهات ما تزول بتعميق النظر وإجادة التفكير لمن اصطفاهم الله تعالى بعلمه[١٥]. وكذلك ما ذكر الشيخ محمد عبده: ان الأنبياء بعثوا إلى جميع أصناف الناس من دان وشريف, وعالم وجاهل, وذكي و بليد, وكان فيه من المعاني مالا يمكن التعبير عنها بعبارة يفهمها كل أحد, ففيها من المعاني العالية, والحكم الدقيقة ما يفهمه الخاصة, ولو بطريق الكناية والتعريض, ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله, والوقوف عند حد المحكم, فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده[١٦].وعلى ذلك يكون وقوع المتشابه في القرآن الكريم من فنون القرآن الكريم, وأسرار بلاغته, وأساليبه البيانية, التي يدركها الخاصة دون العامة الذين أمتحن الله قلوبهم بالإيمان فأوغلوا فيه فكان من الراسخين في العلم الذين ذكرهم الله في كتابه, ولذي سيرد بيانهم في محله.

ثالثاً: هل يعلم التأويل إلا الله؟ كثر الكلام حول هذا السؤال, وللإجاب على ذلك لابد أن نعرف أن هذا السؤال ذو وجهين أحدهما عام وهو: هل يستطيع أحد أن يقف على تأويل المتشابه؟ والثاني خاص وهو: ماذا يستفاد من الآية كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) [١٧], هل الواو للتشريك أو الإستئناف ؟ أي أن هل الراسخون في العلم شركاء في العلم مع الله تعالى, أو بدأت بكلام جديد (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا)وللإجابة على الجانب الأول للسؤال نقول : لاشك أن القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات, ومشتمل على آيات متشابهات, ولا محالة يقصده بذلك أهل الأهواء والأطماع الفاسدة، سعياً وراء المتشابهات إبتغاء تأويلها وإنحرافها إلى ما يتفق مع أهوائهم الباطلة، سيعاً وراء الفتنه بين المسلمين كما جاء ذلك في قوله تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ) [١٨], فلولا وجود علماء الذين شرح الله صدورهم بالإيمان, في كل عصر ومصر يبطلون كيد المبطلين لأصبح القرآن معرضاً خصباً لأهل الفتن والفساد, ووفق قاعدة اللطف الإلهي ووجود علماء عارفين بتأويل المتشابهات على وجهها الصحيح، ليكونوا سداً منيعاً في وجه أهل الفساد والإفساد, وكذلك لكانت الآي المتشابهة مما لا يعرف تأويلها إلا الله لأصبح قسط كبير من آي القرآن لا فائدة في تنزيلها سوى ترداد قراءتها, وأن ذلك معارض لأمر الله تعالى لنا بتدبر في آيات الذكر الحكيم كما جاء في قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)[١٩], وكيف يكون ذلك وأن النبي (صلى الله عليو وآله وسلم) عاش بينهم وكان مرجعهم في فهم القرآن الكريم, وكيف يكون القرآن الكريم المعجزة الخالدة الذي تحدى الله تعالى به العرب وهم لا يفهمون آياته, وكذلك لم نجد من العلماء في الصدر الأول للإسلام ممن امتنع عن تفسير آية قرآنية بحجة أنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويلة إلى الله, فلا يبقى مجال إلا القول بأن الشق الأول من السؤال باطل لمخالفته لنقل والعقل, وأما الشق الثاني من السؤال, يتبين من خلال النظر إلى الآية ذاتها فإنه دلالتها على التشريك جليه واضحة، إذ من الضروري لزوم رعاية المناسبة القريبة بين عنوان والمعنون, والمسند و المسند إليه, وعليه فعنوان الراسخون في العلم بنفسه يستدعي أن يكون المعرف إليهم من جنس ما يتناسب المعرفة الكاملة, وأما الإيمان الأعمى فلا مناسبة بينه وبين الرسوخ في العلم, وعليه فرعاية هذه المناسبة هي التي تستدعي وجوب التشريك, ليكون الراسخون في العلم أيضاً عالمين بتأويل المتشابهات إذ لا عبره بالإيمان من غير معرفه... وعلى ذلك فلقول بتشريك هو ما يحكم به مفاد الآية المباركة, وقال به أكثر أهل العلم, وقد ذكر الشيخ معرفة أقوال المثبتين, والمنكرين لذلك[٢٠].

رابعاً: وبعد ذلك لابد من معرفة من هم الراسخون في العلم؟ إن الراسخون في العلم هم من لمسوا من المتشابه وجه التشابه فيه أولاً, ثم تمكنوا من الوصول إلى وجه تخريجه الصحيح في نهاية الأمر, لأن فهم السؤال نصف الجواب كما قيل, إذ الراسخون في العلم هم من عرفوا من قواعد الدين أُسسها المكينة ودرسوا من واقع الشريعة اصول مبانيها الرصينة, ومن ثم إذا ما جوبهوا بما يخالفها في ظاهر اللفظ عرفوا أن له تأويلاً صحيحاً يجب التوصل إليه في ضوء تلكم المعارف الأولية, ومن جد في طلب شيء, وكان من أهله, تحصله في نهاية المطاف, أما الجاهل الأعمى فلا يعرف من الدين شيئاً سوى ظواهره, ومن غير أن يميز بين محكماته والمتشابهات, والخلاصة أن العلماء الصادقين بما أنهم واقفون على قواعد الشريعة, وعارفون بموازين الشرع ومقاييسه الدقيقة إذا ما عرضت عليهم متشابكات الأمور هم قادرون على استنباط حقائقها وعلى أوجه تخريجاتها الصحيحة, ومن ثم فإنهم يعلمون تأويل المتشابهات بفضل رسوخهم في فهم حقيقة الدين, وسعيهم الحثيث

لخدمته, وكل بفضل الله وعنايته, حيث قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [٢١], وكذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) [٢٢], وبما استقاموا فضلهم الله على غيرهم, وفتح لهم أبواب العلم والمعرفة حيث قال تعالى(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا) [٢٣], وجلها الماء الغدق الذي ينير الله تعالى به العقول الذي يفيض به الله تعالى على من يشاء من عباده المؤمنين، ويطلعهم على أسرار الملك والملكوت في العالمين, وأن أول مصاديق الراسخون في العلم وسيدهم وهو النبي الأعظم محمد (صلى الله عليو وآله وسلم), حيث قال الإمام الباقر(عليه السلام) أفضل الراسخين في العلم رسول الله (صلى الله عليو وآله وسلم) قد علم جميع ما أنزل الله في القرآن من التنزيل والتأويل, وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يُعلمه تأويله)[٢٤] ثم من جعله النبي (صلى الله عليو وآله وسلم) باب مدينة علمه أمير المؤمنين (عليه السلام)والأوصياء من بعده (ﷺ) حيث قال الإمام جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام) (إنّ الله علم نبيه التنزيل والتأويل, فعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً وعلمنا والله)[٢٥]. وكذلك قال الإمام الصادق في موضع آخر (نحن الراسخون في العلم, فنحن نعلم تأويله), وكثير من الأحاديث عن أهل بيت العصمة ما أكدة هذه الحقيقة, وأنهم هم أهل العلم وهم الراسخون في العلم الذين يعلمون تنزيله وتأويله, وجميع ما في من علوم وأسرار, وكيف لا يكونوا كذلك وقد جعلهم الله تعالى عدلاً الكتاب, وترجماناً لوحيه, وكذلك من سار على نهجهم, واهتدى بهديهم, واغترف من نبع علمهم, فهوا على الطريقة المثلى والهدي القويم.

خامساً: نماذج من المتشابهات في القرآن. إن الاخذ بظاهر القرآن في الآيات المتشابهة وعدم الرجوع بها إلى المحكمات من الآيات أوقع طوائف من المسلمين إلى القول بالتجسيم لله تعالى, حيث ذهب الأشعرية والحشوية ومن لف لفهم من المشبهة والمجسمة بأن ينسبوا لله تعالى كثير من المسائل التي لا تصح بحقه, ولا تليق بقدسه تعالى الله عن ذلك, وسنتكلم عن مسألتين من أكثر المسائل أهميه حيث يقع الإشتباه فيهما, وتجد من المسلمين اليوم من يتبنا أفكار خاطأه قائمه على تلك المسائل, وهي إثبات الجهة والمكان, والأعضاء, لله تعالى, وأن حجتهم في ذلك الأخذ بظاهر الآيات المتشابهة, والأحاديث المزيفة التي المنسوبة إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وسيتبين من خلال عرض حججهم, وطرق إستلالهم مدى وهنهم وضعف حجتهم.

المسئلة الأولى: الجهة والمكان. إن الذين يتبنون هذا المعتقد الأشعرية ومن لف لفهم من المشبهة والمجسمة يذهبون إلى أن الله تعالى في جهة (فوق) مستويا على عرشه فوق أطباق الثرى, وأن ينزل ويصعد ويتحرك من مكان إلى آخر, فيحويه مكان ويخلو من مكان, وقد إستلوا على مدعاهم بآيات كثيره حسبوها دالة على ما فهموا منها وفق ظواهرها, سنذكر جمله منها والردود عليها.

١ . قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[٢٦].

٢ . وقوله تعالى :(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) [٢٧].

٣ . وقوله تعالى: (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)[٢٨].

٤ . وقوله تعالى: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)[٢٩].

٥ . وقوله تعالى: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)[٣٠]. وغير ذلك من الآيات التي أشارت إلى الجهة والمكان, وبعد سردهم قائمة طويله من الآيات ذكروا : أن كل ذلك يدل على أن الله تعالى ليس في خلقه, ولا خلقه فيه, وإنما هو مستوي على العرش في السماء, وإستدل ابن خزيمة بأن فطرة المسلمين علمائهم وجها لهم, أحرارهم ومماليكهم, ذكورهم واناثهم, بالغيهم وأطفالهم, كل من دعا الله جل وعلا, فإنما يرفع رأسه إلى السماء, وعد يده إلى الله إلى أعلاه لا إلى أسفل, وزاد المعلق (محمد خليل هراس) في هامش الكتاب أن التوجه إلى السماء في الدعاء, ليس فطرة في المسلمين وحدهم, بل هو فطرة عامة في سائر الناس, بل إن الحيوانات نفسها لترفع رأسها إلى السماء زمان الجدب, كأنها تستمطر ربها الفطرة إلا معطل قد فسدت فطرته, وهكذا استدل أبو الحسن الأشعري, هذا جل ما تشبث به القوم في هذا المجال, وسيتبن بطلان مدعاهم من خلال الرد عليهم وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) وإمام المتقين, وباب مدينة علم سيد المرسلين محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ وَلَا يُحْصِي نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ وَلَا وَقْتٌ مَعْدُودٌ وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَنَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ وَمَنْ جَهِلَهُ

فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ وَمَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ وَمَنْ قَالَ عَلَا مَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْآلَةِ بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ))[٣١]. حيث وصف أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب الله عز وجل بما هو أهله, ونزهه عن كل ما لا يليق بقدسه, سبحانه وتعالى عمى يصفون وعن الإمام موسى بن جعفر وقد ذكر عنده أن قوماً يزعمون أن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا! قال: (إن الله لا ينزل, ولا يحتاج إلى أن ينزل إنما منظره (أي علمه المحيط) في القرب والبعد سواء, لم يبعد منه قريب ولم يقرب منه بعيد, ولم يحتج إلى شيء, بل يحتاج إليه كل شيء, وهو ذو الطول لا إله إلا هو العزيز الحكيم, أما قول الواصفين انه ينزل تبارك وتعالى فإنما يقول ذلك من ينسبه إلى نقص وزيادة, وكل متحرك محتاج الى من يحركه أو يتحرك به, فمن ظن بالله الظنون هلك, فاحذروا في صفاته من أن تقفوا له على حد تحدونه بنقص أو زيادة, أو تحريك أو تحرك, أو زوال أو استنزال أو نهوض أو قعود فان الله جل وعز عن صفة الواصفين، ونعت الناعتين، وتوهم المتوهمين)[٣٢]. وأنه تعالى لا يوصف بما توصف به المخلوقات, فليس هو بجسم ولا صورة, وليس جوهراً ولا عرضاً, وليس له ثقل أو خفة, ولا حركة أو سكون, ولا مكان ولا زمان, ولا يشار إليه, كما لا ند له, ولا شبه, ولا ضد, ولا صاحبة له ولا ولد, ولا شريك, ولم يكن له كفواً أحد, لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار, ومن قال بالتشبيه في خلقه بأن صور له وجهاً وبداً وعيناً, أو أنه ينزل إلى السماء الدنيا, أو أنه يظهر إلى أهل الجنة كالقمر, أو نحو ذلك فإنه بمنزلة الكافر به جاهل بحقيقة الخالق المنزه عن النقص, بل كل ما ميزناه بأوهامنا في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلنا مردود إلينا ... فإن أمثال هؤلاء المدعين جمدوا على ظواهر الألفاظ في القرآن الكريم أو الحديث, وأنكروا عقولهم وتركوها وراء ظهورهم فلم يستطيعوا أن يتصرفوا بالظواهر حسبما يقتضيه النظر والدليل وقواعد الاستعارة والمجاز[٣٣] .

العرش والكرسي: رغم تكرر ذكر (العرش) في القرآن أكثر من عشرين مرة, إلا أن لم يأت ذكر (الكرسي) إلا مرة واحدة في سورة البقرة الآية ٢٥٥, وهل هما تعبيران عن شيء واحد أم هما شيئان؟ ذهب أهل الحشو من أصحاب الحديث إلى أن العرش هو سرير ملكه تعالى متربع عليه , والكرسي دكة أو مصطبة دون العرش, يكون موضع قدميه تعالى, وهو يئط من ثقله تعالى أطيط الرحل الحديد, ورووا في ذلك أحاديث اعتمدوا ظواهرها من غير تعمق أو تحقيق, وأما أهل النظر والتمحيص فقد شطبوا على هكذا روايات هي مخالفة لضرورة العقل ومحكم الشريعة, وفسروا العرش والكرسي بالعلم والقدرة المناسبة جلية من نفس الآيات وشواهد من اللغة والآثار, والذي نستخلصه من مفاد الآيات والروايات الصحيحة: أن العرش والكرسي تعبيران عن معنى واحد هو جليل قدرته تعالى وسعة علمه المحيط بكل شيء, غير أن الكرسي جاء تعبيراً عن ملك تعالى بالذات, والعرش تعبيراً عن جانب تدبيره لشؤون الخلق كله, فالكرسي كرسي الملك, والعرش عرش التدبير, وكلاهما يشيران الى سعة علمه وعظيم قدرته تعالى, حيث أن القدرة الشاملة والعلم المحيط يستدعيان ملكاً يسع السماوات والأرض, وتدبيراً شاملا لعالم الوجود أجمع, وهذا ما أشارت إلية الآيات المباركة, والأحاديث الصحيحة عن أهل بيت العصمة وكتب اللغة, حيث قال تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [٣٤], أي وسع ملكه أرجاء عالم الوجود من غير أن يعجز عن ادارة شؤونه بما يدوم مزدهراً الأبدية فهذا التعبير (لا يؤده) يدلنا بوضوح على ارادة الملك من وسع كرسيه بالذات, ومن عبر عن الكرسي بالعلم – كابن عباس ومجاهد وغيرهما – أراد نفس المعنى، إذ ملكه تعالى منبعث عن علمه المحيط المعبر عنه بالعرش أيضاً, حيث التدبير الحكيم يستدعي الاحاطة والعلم بمزايا الأمور كما قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) [٣٥], قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) [٣٦], أنظر إلى الآية الأولى كيف رتبت التدبير على قوله: (استوى على العرش) ليكون المعنى: استوى على عرش التدبير, وتوضحه الآية التالية (ألا له الخلق والأمر) فالخلق هو ما عبر أولاً من خلق السماوات والأرض, والأمر هو اقامة شؤونهن وحفظهن عن الفساد والاختلال, وهكذا جاء التعبير في سورة الرعد الآية (٢) ثم استوى على العرش التدبير, وسورة الفرقان الآية (٥٩), وفي سورة السجدة الآية الرابعة والخامسة, ثم استوى على العرش يدير الأمر من السماء إلى الأرض وعلى نفس النمط في سورة الحديد الآية (٥), وسورة غافر الآية (١٥), وطه الآية (٨) وغيرهن من آيات فالعرش في هذه الآية هو عرش التدبير وادارة شؤون الملك يوم لا ملك إلا ملكه تعالى[٣٧].وعلى ضوء ما تقدم يتبين أن لا غموض على وجه الآيات التي تمسك بها الأشعري وأتباعه, مما لا دلالة لها على مدعاهم لو نظروا بعين التعقل والتدقيق, وإليك التأويل الصحيح, والنظر الصائب لما عرضوا من الآيات لإثبات مدعاهم فيما تقدم من الآيات قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[٣٨], فقد تقدم أن العرش هو عرش التدبير كناية،

والاستواء هو الاستيلاء التام والتمكن الكامل من الاحاطة بشؤون التدبير, وقوله تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) [٣٩], فإنه صعود ورفع معنوي لا حسي, أي الأعمال الحسنة ترتفع من هذا العالم المادي, لتنقلب درجات في عالم آخر لامادي هو فوق هذا العالم شأناً ورفعة, وقوله تعالى: (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)[٤٠], يعني الرفع المعنوي, وتخليصه من شرور هذه الحياة السفلى الكدرة, إلى حياة عليا كريمة, كما جاء في قوله تعالى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا)[٤١], وقوله تعالى في شأن إدريس (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)[٤٢], وكذلك قوله تعالى بشأن الشهداء في سبيل الله: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)[٤٣], وغيرها من نظائر كثيرة كان المقصود فيها من التعبير بـ(عند الله) أو (الرفع اليه) هو شرف القرب والرفع المعنوي لا القرب المكاني والصعود الحسي, وكذلك قوله: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)[٤٤], وهذه الآية عبارة أخرى عن قوله تعالى:) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) [٤٥], فالسماء والأرض اخذتا هنا كناية عن عالم العلو اللامادي وعالم السفل المادي, وأن تدابير هذه الحياة إنما تتخذ في عالم أعلى من عند ربنا عزو جل. ومن ثم بعدها يقول عز من قال: (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) [٤٦], وأن جميع ما أحتج به الأشعرية ومن لف لفهم من أصحاب التجسيم كان مفادها غير ما فهموا من تلك الآيات المباركات, ومن خلال ما تقد تبين أن مدعاهم واضح البطلان[٤٧].

المسئلة الثانية: الأعضاء. ادعى المشبهة أن لله تعالى أعضاء, وحيث أن الله عز وجل منزه عن كل نقص وفوق كل وصف كما قال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [٤٨], فكيف يصح أن يصف المسلم الله عز وجل بما يوصف به المخلوق من أن لله تعالى أعضاء من وجه, وعين, ويد, سيتضح بيان ذلك وبطلانه. كما تقدم أن المشبهة أثبتوا أن لله سبحانه وتعالى أعضاء وجوارح كما في المخلوقين, وحكي ذلك عن علمائهم ومن سار على نهجهم, وما ورد في التنزيل من الاستواء والوجه والعين واليدين والجنب والمجيء والاتيان والفوقية أجروها على ظاهرها ، وكذلك ما ورد في الاخبار من الصورة وغيرها، أجروها على ما يتعارف من صفات الأجسام، وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) زوراً وبهتاناً, ونحن في هذا المجال لا نخصهم بالذات, ولا نقف عندهم, وإنما الكلام لكل من نسب إلى الله تعالى ما لا يليق بقدسه من المسلمين على مر الزمان وفي إي مكان, حيث نجد من المسلمين اليوم ما لا يقرق كلامهم عن ما قال أهل التجسيم والتشبيه من الأشعرية وغرهم سعياً وراء نواياهم الخبيثة التي يريدون منها تشويه الإسلام وتفريق المسلمين, حيث ذكر الأشعري وأتباعه, ومن حذا حذوه في الأخذ بظاهر المتشابهات لإثبات الوجه والعين واليد والرجل وسائر الأعضاء والجوارح الله سبحانه من غير بيان الكيف ولا تشبيه بشيء من المخلوقين, حيث جاء قوله هذا رداً على من يسئله كيف أثبتم ذلك لله عز وجل, قال الأشعري: بالله نستهدي واياه نستكفي ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو الله المستعان, أما بعد فمن سألنا فقال: أتقولون أن لله تعالى وجهاً؟ قل له: نقول ذلك, خلافاً لما قاله المبتدعون, وقد دل على ذلك قوله عز وجل: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)[٤٩], وقال: فإن سألنا أتقولون أن الله يدين ؟ قيل: نقول ذلك, وقد دل عليه قوله عز وجل (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [٥٠], وقوله عز وجل: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)[٥١], ثم نقل أخبار عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: إن الله تعالى مسح بيده على ظهر آدم فاخرج منه ذريته, وان الله خلق آدم بيده, وخلق جنة عدن بيد هو ... وإلى غير ذلك من الكلام المزعوم, كما أن اثبات الأعضاء – على أي نحو كانت – يستدعي تركبه تعالى منها, والتركيب في ذاته المقدمة مستحيل, ونظراً لان المتركب من الأجزاء محتاج اليها في تركيبه الأمر الذي يمتنع بشأنه تعالى اطلاقاً, وأما الآيات التي تمسكوا بها فلا دلالة لها على ثبوت عضو له تعالى حتى في ظاهر تعابيرها البديعة فضلاً عن امكان تأويلها إلى ما يتوافق ومحكمات الآيات والعقول, ولنذكر من الآيات ما جاء فيها ذكر الوجه والعين واليد واليمين والساق, وسنبين التأويل الصحيح الذي خرجه العلماء ورداً على المشبهة, وإليك بيان ذلك[٥٢].الوجه: حيث ذكر الوجه مضافا اليه تعالى في القرآن في أحد عشر موضعاً, وليس واحد من هذه المواضع مراداً به العضو الذي فيه الأنف والعينان, بل أما بمعنى الذات أو بمعنى القصد أو التقرب والزلفى لديه تعالى ولا يمكن إرادة الوجه بمعنى العضو المعروف بتاتاً : – قال تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [٥٣], وقال تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)[٥٤], ليس المعنى أن الباقي بعد فناء كل شيء هو وجهه بمعنى العضو, بل المراد لا يبقى شيء سوى ذاته المقدمة تبارك وتعالى أي كل شيء هالك إلا هو, فجاء الوجه في هاتين الآيتين بمعنى الذات لا غير, ونستغرب كيف فسر الأشعري وتابعوه (الوجه) في الآية بمعنى العضو! في حين أن هذا التفسير تحريف واضح بمدلول الآية الظاهري يعرفه كل من ألقى إلى الآية نظرته ولو بدوية, نعم قد يخفى ذلك على من كان على بصره غشاوة, وكذلك قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [٥٥], أيضاً بمعنى ذاته المقدسة, المحيطة بهذا العالم احاطة علم وتدبير, ولا يخلوا منه مكان ولا يحويه مكان دون مكان, وأن الآية

المباركة جاءت رد على اليهود كانوا يزعمون أن الصلاة تجب إلى البيت المقدس كما كانت قبل تحويل القبلة إلى البيت الحرام، وقامت تعبر على المسلمين هذا التحويل المفاجيء, فقوله تعالى: (فتم وجه الله) يعني: أينا اتجهتم في عباداتكم فتم اتجاه إلى الله تعالى, لأنه هو المقصود بالعبادة الخالصة لوجهه الكريم, وإنما جاء الأمر باتجاه خاص لمصلحة في ذلك, وربما كانت وحدة الاتجاه العبادي لجميع المسلمين في عامة عباداتهم الأمر الذي كان يشد من وحدتهم في سائر الأمور, وأما قوله تعالى: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)[٥٦], أي لأجل, وأن ليس المقصود من هذا الاحسان سوى التقرب والزلفى لديه تعالى, فهو المقصود بالذات لا المكافئة ولا الثناء، وهكذا سائر الآيات التي ذكر فيها لفض الوجه فليس من المعقول أن تحمل على الجارحة, وإنما جاء تأويلها بما يناس العقل والنقل, ولذي ينسجم مع ذات الله المقدسة. العين: وهكذا العين حيث ذكر العين مضافة إليه تعالى في القرآن في (خمسة مواضع) سورة طه قال تعالى: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [٥٧], خطاباً مع موسى في هذا الموضع فقط جاءت مفردة,. والباقي جمعاً, خطابا مع نوح قال تعالى: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)[٥٨], وكذلك قوله تعالى: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [٥٩], خطاباً مع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والمراد في الجميع هي الرعاية الخاصة, إذ هذا النحو من الاستعمال لا يقصد منه سوى هذا المعنى حتى فيمن كانت له الجارحة المعهودة, وذلك لأن دخول الباء عليها متعلقة بفعل مذكور, يجعلها ظاهرة في معنى الرعاية, أما الجمود على ظاهر اللفظ حينئذ فيقتضي وقوع الفعل المذكور في نفس الجارحة, وهو فاسد قطعاً, فليس المراد سوى وقوعه تحت الرعاية الخاصة, وأيضاً لو كان المراد نفس الجارحة, لم يصح الإفراد ولا الجمع في مثل الآيات المذكورة, حيث اضافتها إلى شخص واحد, فاذا قلت: إنك تفعل بعيني أو بأعيننا, لم يصح وأنت ذو عينين إذا كنت قصدت الجارحة الخاصة, أما إرادة الرعاية والعناية الخاصة فصحيحة, كما في قولهم – عند تشييع مسافر سر فعين الله ترعاك , أي رعايته الخاصة تحفظك عن الأخطار فهذا هوه التأويل الصحيح والفهم الصائب لما أفاده تلك الآيات المباركات اليد:وأما اليد فقد ذكرت في القرآن مضافة اليه سبحانه في (اثنى عشر موضعاً) منها في سورة المائدة قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [٦٠], وأن غل اليد وبسطها كنايه عن الامساك والاتفاق، كما في قوله تعالى : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)[٦١], إذ ليس المقصود شد يديه إلى رقبته كالكسير، ومدهما إلى طرفيه أفقياً كلاعب رياضة. غير أن صاحب الذوق الأشعري لا يرى سوى الجمود على ظاهر التعبير بعيداً عن ذوق العرب الرقيق, وقوله تعالى: (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)[٦٢], أي في ملكه وتحت اختياره, ومن ثم عقبه بايتاء من يشاء دليلاً على إرادة هذا المعنى, إذ ليس الفضل شيئاً ملموساً قابلاً للامساك باليد, وغيرها من الآيات وقوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [٦٣], أي بقوة واحكام كما في قوله: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ)[٦٤], أي أولى قوة وبصيرة، زادهم بصطة في العلم والجسم, وكثير من الآيات التي ورد فيها لفض اليد سواء نسبت إلى الله تعالى أو إلى غيره لا يراد منها عضو اليد المادي, وإنما أفادت معنا آخر حسب سياق, أو مفاد الآية المباركة, وهذا لون من ألوان البلاغة في القرآن الكريم, وكذلك لفض الساق, من العجب العجاب أن ينسب ذو لب إلى الله تعالى, الرجل, القدم, والساق بما هي عضو, مستدل بقوله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) [٦٥], حيث لم ترد لفض الساق إلى مره واحدة في القرآن الكريم, وأما الأيدي والأرجل لم ترد في القرآن الكريم إطلاقا, وأن مفاد الساق عند المشبهة هي ساق الرحمن حيث يكشف عن ساقة يوم القيامة عندما يشتد الأمر ويتفاقم الهول, تعالى الله عما يقولون[٦٦] وذكر العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان في مفاد هذه الآية البارکة: معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم, ولا كشف ثم ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل[٦٧].وذكر العلامة ناصر مكارم الشيرازي, في تفسير الأمثل: هو كناية عن شدة الهول والخوف والرعب وسوء الحال, إذ أن المتعرف بين العرب عند مواجهتهم أمراً صعباً أنهم يشدون ثيابهم على بطونهم مما يؤدي إلى كشف سيقانهم, ونسب العلامة هذا القول إلى جمع من المفسرين[٦٨].الخلاصة مما تقدم: كما ذكرنا أن العلامة محمد هادي معرفة من العلماء العملين في الدين الذي ترك تراث كبير في ميدان العلوم الدينية, وخدم الإسلام طيلة أيام حياته, وكان مما ترك من ذلك التراث الكبير كتاب البرهان في علوم القرآن, ذلك الكتاب الذي أصبح مهل من مناهل العلم والمعرفة لمن أراد أن يدرس علوم القرآن الكريم, وقد أفرد فيه مجلد لبيان علم المحكم والمتشابه في علوم القرآن, ناقش في ذلك المجلد أهم ما يتعلق بذلك العلم من مسائل هي غايه بالأهمية لتعلقها المباشر بكتاب الله المجيد, وقد رد على أخطر وأهم ما يدور في أذها الناس من المسلمين وغرهم من مسائل حول المحكم والمتشابه, وكان مما أجاب عليه, هل في القرآن الكريم متشابه؟ وقد كانت تلك المسألة كثير ما تتردد في العلماء, وعامة الناس, فهناك من أقر بوجود المتشابه في القرآن ولابد من ارجاعه إلى المحكم من الذكر الحكيم, وهناك من أنكر, ولتزم بظاهر النصر, وهناك من وقف موقف الحياد في

ذلك, وقد أثبت العلامة جلياً مما لا ريب فيه أن في القرآن الكريم متشابه كما هناك محكم, ولا بد من ارجاع المتشابه إلى المحكم من الذكر الحكيم, وقد صرح بلك القرآن الكريم, وأقر بذلك علماء المسلمين من الخلف والسلف؛ إلا الاشاعرة من لف لفهم من الذين إلتزموا بظاهر النصر, مما أوقعهم في التشبيه والتجسيم لله تعالى, وأن القول وبوقوع المتشابه في كتاب الله لا يعد نقص كما ادعى الملاحدة الذين يريدون طعناً بالقرآن الكريم, وقد أثبت العلامة معرفة أن ورود المتشابه في القرآن الكريم هو لون من أوان البيان, وأن هذا شائع عند العرب, ورائج في لغتهم, فكان ورود المجاز, والإستعارة, والكناية أمر لابد منه في القرآن لكي يتماشى مع للغة العرب الذي نزل متحدين لهم, وقد أثبت كذلك أن تأويل المتشابه لا يقتصر علمه على الله وحده؛ بل الراسخون في العلم يعلمون تأويله, وقد بين من هم الراسخون في العلم, وقد ذكر نماذج من الآيات المتشابهة التي وردت في القرآن الكريم, ولتي أخذ بها أهل الظاهر, ورفضوا القول بتأويل مما أوقعهم في القول بالتشبيه والتجسيم لله تعالى, وقد ادعو أن لله تعالى جهة ومكان, وأعضاء, وقد أثبت العلامة معرفة بطلان ذلك المدعى من خلال آيات القرآن الكريم, والتأويل الصحيح لتلك الآيات التي نسبوا فيها لله تعالى ما لا يليق بقدسه تعالى عما يصفون علواً كبيرا, وكان جل ما ذكرنا بشكل مختصر وإلا الكلام في ذلك يطول بما لا يتسع له البحث. والله ولي التوفيق.

قائمة المصادر:

١ . انظر, نبذه من حياة العلامة محمد هادي معرفة وسيرة العلمية, موقع دار السيدة رقية(ع) للقران الكريم, ت,٢٦, ٨, ٢٠١٤م.

٢ . انظر, التمهيد في علوم القرآن, محمد هادي معرفة, مؤسسة النشر الإسلامية, قم المقدسة,١٤٢٧هـ, ٢٠٠٧م.

٣ . انظر, تفسير الميزان, العلامة الطباطبائي.

٤ . انظر, الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل, الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

٥ . اصول الكافي.

٦ . انظر, عقائد الإمامية, محمد رضا المظفر, ط١, مؤسسة التاريخ العربي, بيروت . لبنان, ١٤٣٢هـ, ٢٠١١م.

٧ . انظر, تفسير المنار, محمد رشيد رضا.

٨ . انظر, نهج البلاغة, الخطبة الاولى.

هوامش البحث

[١] . انظر, نبذه من حياة العلامة محمد هادي معرفة وسيرة العلمية, موقع دار السيدة رقية(ع) للقران الكريم, ت,٢٦, ٨, ٢٠١٤م.

[٢] . انظر, التمهيد في علوم القرآن, محمد هادي معرفة, ج١, ص أ. ح, مؤسسة النشر الإسلامية, قم المقدسة,١٤٢٧هـ, ٢٠٠٧م.

[٣] . سورة, آل عمران, الآية, ٧.

[٤] . سورة, آل عمران, الآية, ٧.

[٥] . سورة, هود, الآية, ١.

[٦] . سورة, الزمر, الآية, ٢٣.

[٧] . سورة, محمد, الآية, ٢٤.

[٨] . سورة, الإسراء, الآية, ٩.

[٩] . انظر, البرهان في علوم القرآن, محمد هادي معرفة, ص١٤, ج٣.

[١٠] . سورة, البقرة, الآية, ٣٠.

[١١] . سورة, الجاثية, الآية, ١٣.

[١٢] . سورة, الجاثية, الآية, ١٣.

[١٣] . انظر, البرهان في علوم القرآن, محمد هادي معرفة, ص٢٠. ٢٢ , ج٣.

[١٤] . سورة, الرعد, الآية, ١٧.

[١٥] . انظر, الميزان في تفسير القرآن, محمد حسين الطباطبائي, ص٥٨, ج٣.

[١٦] . انظر, تفسير المنار, محمد رشيد رضا, ص١٧٠, ج٣.

[١٧] . سورة, ال عمران, الآية, ٧.

[١٨] . سورة, ال عمران, الآية, ٧.

[١٩] . سورة, ص, الآية, ٢٩.

[٢٠] . انظر, البرهان في علوم القرآن, محمد هادي معرفة, ص٣٦. ٤٦ , ج٣

[٢١] . سورة, العنكبوت, الآية, ٦٩.

[٢٢] . سورة, فصلت, الآية, ٣٠.

[٢٣] . سورة, الجن, الآية, ١٦.

[٢٤] . بحار الأنوار , ص٧٨, ج ٩٢.

[٢٥] . مرآة الأنوار, ص١٥.

[٢٦] . سورة, طه, الآية, ٥.

[٢٧] . سورة, فاطر, الآية, ١٠.

[٢٨] . سورة, النساء, الآية, ١٥٨.

[٢٩] . سورة, السجدة, الآية, ٥.

[٣٠] . سورة, الملك, الآية, ١٦.

[٣١] . نهج البلاغة, الخطبة الأولى.

[٣٢] . اصول الكافي, ص١٠٣, ج١.

[٣٣] . انظر, عقائد الإمامية, محمد رضا المظفر, ص١٧, ط١, مؤسسة التاريخ العربي, بيروت . لبنان, ١٤٣٢هـ, ٢٠١١م.

[٣٤] . سورة, البقرة, الآية, ٢٥٥.

[٣٥] . سورة, يونس, الآية, ٣.

[٣٦] . سورة, الأعراف, الآية, ٥٤.

[٣٧] . انظر, التمهيد في علوم القرآن, محمد هادي معرفة, ص١٢١. ١٢٤.ج٣.

[٣٨] . سورة, طه, الآية, ٥.

[٣٩] . سورة, فاطر, الآية, ١٠.

[٤٠] . سورة, النساء, الآية, ١٥٨.

[٤١] . سورة, النساء, الآية, ١٥٨.

[٤٢] . سورة, مريم, الآية, ٥٧.

[٤٣] . سورة, البقرة, الآية, ١٥٤.

[٤٤] . سورة, السجدة, الآية, ٥.

[٤٥] . سورة, الحجر, الآية, ٢١.

[٤٦] . سورة, الجسد, الآية, ٦.

[٤٧] . انظر , التمهيد في علوم القرآن, محمد هادي معرفة, ص١٢٨. ص١٣٦, ج٣.

[٤٨] . سورة, الشورى, الآية, ١١.

[٤٩] . سورة, الرحمن, الآية, ٢٧.

[٥٠] . سورة, الفتح, الآية, ١٠.

[٥١] . سورة, ص, الآية, ٧٥.

[٥٢] . انظر, التمهيد في علوم القرآن, ص١٣٨, ١٤٥, ج٣.

[٥٣] . سورة, القصص, الآية, ٨٨.

[٥٤] . سورة, الرحمن ,الآية, ٢٦. ٢٧.

[٥٥] . سورة, البقرة ,الآية, ١١٥.

[٥٦] . سورة, الإنسان ,الآية, ٩.

[٥٧] . سورة, الإنسان ,الآية, ٩.

[٥٨] . سورة, هود ,الآية, ٣٧.

[٥٩] . سورة, الطور ,الآية, ٤٨.

[٦٠] . سورة, المائدة ,الآية, ٦٤.

[٦١] . سورة, الإسراء ,الآية, ٢٩.

[٦٢] . سورة, ال عمران ,الآية, ٧٣.

[٦٣] . سورة, الذاريات ,الآية, ٤٧.

[٦٤] . سورة, ص ,الآية, ٤٥.

[٦٥] . سورة, القلم ,الآية, ٤٢.

[٦٦] . انظر, التمهيد في علوم القرآن, محمد هادي معرفة, ص١٤٦. ١٥٣, ج٣.

[٦٧] . انظر, تفسير الميزان, العلامة الطباطبائي, ص٣٨٥, ١٩.

[٦٨] . انظر, الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل, الشيخ ناصر مكارم الشيرازي, ص٤٠٣, ج١٨.